أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين

قيل أفتعذبنا بجناية آبائنا المبطلين

الدالة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى وكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم وقال لهم ألست بربكم وكأنهم قالوا بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك وباب التمثيل واسع في كلام الله ورسوله وفي كلام العرب ونظيره قوله عز وعلا إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين وقوله إذا قالت الأنساع للبطن الحق قالت له ريح الصبا قرقار ومعلوم أنه لا قول ثم وإنما هو تمثيل وتصوير للمعنى أن تقولوا مفعول له أي فعلنا ذلك من نصب الأدلة الشاهدة على صحتها العقول كراهة أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين لم ننبه عليه أو كراهة أن تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم فاقتدينا بهم لأن نصب الأدلة على التوحيد وما نبهوا عليه قائم معهم فلا عذر لهم في الإعراض عنه والإقبال على التقليد والاقتداء بالآباء كما لا عذر لآبائهم في الشرك وأدلة التوحيد منصوبة لهم فإن قلت بنو آدم وذرياتهم من هم قلت عني ببني آدم أسلاف اليهود الذين أشركوا بالله حيث قالوا عزير ابن الله وبذرياتهم والدليل على أنها في المشركين وأولادهم قوله أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل والدليل على أنها في اليهود الآيات التي عطفت عليها هي والتي عطفت عليها هي على نمطها وأسلوبها وذلك قوله واسألهم عن القرية وإذ قالت أمة منهم وإذ تأذن ربك وإذ نتقنا الجبل فوقهم واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا أفتهلكنا بما فعل المبطلون أي كانوا السبب في شركنا لتأسيسهم الشرك وتقدمهم فيه وتركه سنة لنا وكذلك ومثل ذلك التفصيل البليغ نفصل الآيات لهم ولعلهم يرجعون وإرادة أن يرجعوا عن شركهم نفصلها وقرئ ذريتهم على التوحيد وأن يقولوا بالياء واتل عليهم على اليهود نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها هو عالم من علماء بني إسرائيل وقيل من الكنعانيين اسمه بلعم بن باعورا

ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون

باعورا أوتي علم بعض كتب الله فانسلخ منها من الآيات بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره فأتبعه الشيطان فلحقه الشيطان وأدركه وصار قرينا له أو فأتبعه خطواته وقرئ فاتّبعه بمعنى فتبعه وكان من الغاوين فصار من الضالين الكافرين روي أن قومه طلبوا إليه أن يدعو على موسى عليه السلام ومن معه فأبى وقال كيف أدعو على من معه الملائكة فألحوا عليه ولم يزالوا به حتى فعل ولو شئنا لرفعناه بها لعظمناه ورفعناه إلى منازل الأبرار من العلماء بتلك الآيات ولكنه أخلد إلى الأرض مال إلى الدنيا ورغب فيها وقيل إلى السفالة فإن قلت كيف علق رفعه بمشيئة الله ولم يعلقه بفعله الذي يستحق به الرفع قلت المعنى ولو لزم العمل بالآيات ولم ينسلخ منها لرفعناه بها وذلك أن مشيئة الله رفعه تابعة للزومه الآيات فذكرت المشيئة والمراد ما هي تابعة له ومسببة عنه كأنه قيل ولو لزمها لرفعناه بها ألا ترى إلى قوله ولكنه أخلد إلى الأرض فاستدرك المشيئة بإخلاده الذي هو فعله فوجب أن يكون ولو شئنا في معنى ما هو فعله ولو كان الكلام على ظاهره لوجب أن يقال ولو شئنا لرفعناه ولكنا لم نشأ فمثله كمثل الكلب فصفته التي هي مثل في الخسة والضعة كصفة الكلب في أخس أحواله وأذلها وهي حال دوام اللهث به واتصاله سواء حمل عليه أي شد عليه وهيج فطرد أو ترك غير متعرض له بالحمل عليه وذلك أن سائر الحيوان لا يكون منه اللهث إلا إذا هيج منه وحرك وإلا لم يلهث والكلب يتصل لهثه في الحالتين جميعا وكان حق الكلام أن يقال ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض فحططناه ووضعنا منزلته فوضع قوله فمثله كمثل الكلب موضع فحططناه أبلغ حط لأن تمثيله بالكلب في أخس أحواله وأذلها في معنى ذلك وعن ابن عباس رضه الكلب منقطع الفؤاد يلهث إن حمل عليه وقيل معناه إن وعظته فهو ضال وإن لم تعظه فهو ضال كالكلب إن طردته فسعى لهث وإن تركته على حاله لهث